خصومات أدبيـــــة !

للأستاذ توفيق الحكيم

من كان يتصور أن دعوتى إلى الصفاء بين الأدباء تثير خصومات أو ذكريات عن خصومات ! فلقد كتب الأستاذ « عباس محمود العقاد » فى العدد الماضى من « الرسالة » قصة طريفة أهداها إلىّ . هى الآتية :

« قيل إن الدكتور طه حسين خرج من وظيفته بالجامعة المصرية قبل سنوات . وقيل أنه أثنى على الأستاذ توفيق الحكيم فى بعض ما كتب وهو على جفوة مع رؤساء تلك الأيام . وقيل إن الأستاذ توفيق أشفق من مغبة تلك الجفوة فكتب يقول إنه لا يريد مدحاً من أحد ... وأدرك شهر زاد الصباح أو المساء على قصة أخرى تمثل اليوم مع العقاد لأن خصومته قد تشبه خصومة الدكتور طه حسين قبل سنوات ... »

والتعليق على هذه القصة الطريفة لا يحتاج إلى عناء . لأن الأساس الذى بنيت عليه وهو شبهة الخصومة بينى وبين العقاد قد انهار فى اليوم ذاته الذى ظهر فيه مقاله . فقد طلع لحسن الحظ عدد مجلة الثقافة فى مساء ذلك النهار وفيه تحية منى للعقاد وثناء على كتابه « عبقرية محمد » بما هو أهله

يضاف إلى ما تقدم أن « ما يدريه العارفون وأوشك أن يدريه غير العارفين » هو أن موقفى اليوم يشبه فى كثير من الوجوه موقف العقاد . وأن من بين المجلات والصحف والأقلام ما يعلن تجريحى وخصومتى بمختلف الأسباب لعين الأغراض

بقى بعد ذلك عنصر واحد من عناصر القصة سكت طويلاً عن تجليته ظناً منى أنه لن يؤخذ على سبيل الجد . أما وقد أخذه الأستاذ العقاد على أنه حقيقة ، فمن الواجب إذن أن أوضح ولو كان فى الإيضاح إساءة للدكتور طه . فإن هذا الوقت هو أحب الأوقات عندى لإساءته لا لإرضائه

إن حقيقة الخصومة بينى وبين طه حسين فى تلك الأيام من عام ١٩٣٤ كانت خصومة أدبية صرف ، ولكن الدكتور طه أراد أن يقحم فيها عنصر السياسة ليظهرنى فى صورة « يهوذا » ويظهر نفسه فى صورة « المسيح » . فاخترع تلك القصة اختراعاً ولكن الحقيقة ما لبثت أن ظهرت فى اليوم التالى واضحة مبينة

إلى هنا ينتهى التعليق على هذه القصة . ولكن هنالك قصة أخرى للأستاذ العقاد مهداة إلىّ أيضاً ، وربما احتاجت إلى تعليق طويل لأنها تمس قضية أدبية تحدث فى جميع الآداب فى كل زمان . تلك هى قضية الناقد والكاتب . فقد ذكر الأستاذ العقاد إنى أنكر أن الدكتور طه حسين رفع من شأنى بما كتب عنى . وأنا حقاً أنكر ذلك كل الإنكار ومن يحرص على كرامة الفن لا يسعه أن يقول غير هذا القول . فما من مخلوق على الأرض يرفع أو يخفض من شأنى غير فنى ولما ترجم هذا الفن أو بعضه إلى لغات أجنبية وجد من أعلام نقادها من يرفع شأنه كما وجد فى اللغة عربية طه وأمثاله . فالفن هو الذى يكرم نفسه أو يتمها فى كل مكان وزمان يحل فيهما . حقاً أن طه حسين استقبل كتاب أهل الكهف استقبالاً رائعاً ، لكن لا ينبغى أن ننسى غيره . فبمراجعة تاريخ الحوادث يتضح أن أول من نوه بالكتاب تنويهاً جميلاً كان الشيخ مصطفى عبد الرازق ثم الأستاذ المازنى ثم الأستاذ العقاد على هذا الترتيب . ولعل العقاد قد أشار فى نقده إلى انتفاع بعض المؤلفين الأوربيين بجوهر الأسطورة ونفى عن « أهل الكهف » تهمة الاقتباس أو النقل عن الأجانب وأظنه فضلها من حيث طريقة التصرف على ما قرأ فى بعض اللغات عن فكرة القصة . فلما اطمأن طه حسين إلى آراء هؤلاء أقبل فصاح صيحته المشهورة كأنها صيحة « يوحنا المعمدان » وهو يبشر بالمسيح . فقد قال بهذا النص : « أما قصة الكهف » فحادث ذو خطر ، لا أقول فى الأدب العربى العصرى وحده . بل أقول فى الأدب العربى كله . وأقول هذا فى غير تحفظ ولا احتياط . وأقول هذا مغتبطاً به مبتهجاً له . وأى عجب للأدب العربى لا يغتبط ولا يبتهج حين يستطيع أن يقول وهو واثق بما يقول أن فناً جديداً قد نشأ فيه وأضيف إليه . وإن باباً جديداً قد فتح للكتاب وأصبحوا قادرين على أن يلجوه وينتهوا منه إلى آماد بعيدة رفيعة ما كنا نقدر أنهم يستطيعون أن يفكروا فيها الآن . نعم هذه القصة حادث ذو خطر يؤرخ فى الأدب العربى عصراً جديداً . . . ويمكن أن يقال إنها أغنت الأدب العربى وأضافت إليه ثروة لم تكن له . ويمكن أن يقال إنها

قد رفعت من شأن الأدب العربي وأتاحت له أن يثبت للآداب الأجنبية الحديثة والقديمة ... بل يمكن أن يقال إن الذين يحبون الأدب الخالص من نقاد أجانب يستطيعون أن يقرأوها إن ترجمت لهم ، فسيجدون فيها لذة قوية ، ويجدون فيها متاعاً خصباً وسيثنون عليها ثناءاً عذباً كهذا الذي يخصون به القصص التمثيلية البارعة التي ينشئها كبار الكتاب الأوربيين » وكان لتلك الكلمة أثر قوى ذو دوى لأن طه حسين وضع الأمر كما رأينا في صيغة التقرير بمذهب جديد . كأنه «سانت بوف» يعلن أمر المذهب الرومانتيكي عند ظهور تمثيليات « هوجو » !! ولنسلم بأن طه حسين هو المشيد الأول بشأن أهل الكهف ومؤلفها . فهل هذا حدث جديد في تاريخ الآداب ؟ ألم يصح مثل هذه الصيحة « تورجنيف » عند ما استقبل أول أعمال « تولستوى » قائلاً : « ظهر كاتب روسيا الأعظم ! » أو لم يفعل مثل ذلك « أرنولد بنيت » عند ما أشاد بقصة « الدس هاكسلى » بقوله : « هذا كاتب يلحق مباشرة بقصاصي روسيا العظام ! » أو لم يصنع هذا « أناتول فرانس » بمذكرات ماري باسكرشيف » عند ما أعلن أنها أثر خالد للانسانية ! فإذا هذه الأعمال قد ظهرت ومؤلفوها قد برزوا للعالم بين يوم وليلة . هل استلزم ذلك التحميل بأثقال الديون والتكبيل بحبال الجميل نحو أشخاص النقاد ؟ أو أن الأمر لا يعدو في تلك البلاد أن ناقداً أدى واجبه بأمانة وإخلاص ، لا نحو شخص من الأشخاص ولكن نحو آداب وطنه وفن بلاده ؟ لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض . وإن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشترى من فوره سبحة كيلا ينسى أن يسبح بحمد الناقد أناء الليل وأطراف النهار . شأنه شأن القاضي الذي يصدر حكماً ينقل أحد المتقاضين من الفقر إلى الغنى . فيظل طول حياته يقول في مجالسه ... أنا الذي أغنيت فلاناً ونقلته من حال إلى حال وخلقته هذا الخلق الجديد . وينسى أنه كان مظهراً لحق هذا الفلان لا أكثر ولا أقل . اللهم أن في هذا لأهداراً لكرامة العدالة وكرامة الفن !

ولكن من الإنصاف أن أقول : إني لا أشك في أن طه حسين في أول الأمر كان يصدر حقاً عن عقيدة الناقد الذي يؤدى واجب النقد والفن وحدهما ، فلم يكن قد رآني وما كنت قد رأيته ، وما كان تصادم الطباع والخصال قد لعب دوراً في تقدير الأمور ، وسواء كان طه مخطئاً أو مصيباً في رأيه الذي أبداه ، فهذا ليس من شأني ولا من شأن الأشخاص ، إنما هو من شأن النقاد ورجال الجامعة والباحثين من هذا العصر وما بعده ممن يعنون بتمحيص مذهب أستاذ من أساتذة النقد والأدب .

على أني إذا تفرغت للنقد يوماً ، فإني أرجو أن أؤدى واجبي بمثل هذه الحرارة والأمانة والقوة نحو آثار طه وغيره من الأدباء ؛ وإذا تحقق أملي وأقمت في أوربا بعد الحرب ، فسوف يكون من شأني القيام بهذا العمل نحو هذه الآثار في تلك البلاد

إلى هنا ينتهي ما بيني وبين طه حسين ، إذا كانت شؤون الآداب والفن هي حقاً ملك البحث والدرس والزمن والوطن لا ملك الأشخاص

أما مشاعري الخاصة كانسان نحو الدكتور طه ، فليس الظرف اليوم مواتياً للأطناب في وصفها ، وسأختار الزمان والمكان الملائمين للافاضة بها دون أن يحمل فعلي على غير عمله

وأخيراً ، أوجه خطابي إلى الأستاذ العقاد قائلاً :

« إنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها « الرافعي » رحمه الله ! »

أبهذه السرعة تضع الناس في صف أعدائك ؟ لعلك لفرط ما قاسيت من شر الناس ، ولقلة ما وجدت من خيرهم ، أصبحت مثل « هملت » : تستل سيفك لتضرب من خلف الأستار دون تبين الوجوه . فطعنت صديقاً وأنت لا تدرى

توفيق الحكيم

ظهر كتاب

ملامح المجتمع العراقي

وثمنه ١٥ قرشاً